تنوّع المُشير الاجتماعيّ وطبقاتُ الاستعمالِ اللُّغويّ عند الجاحظ

أ.د. لطيف حاتم عبد الصاحب الزامليَ م.م. عمار إحسان عبد الله الخزاعي

تنوّع المُشير الاجتماعيّ وطبقاتُ الاستعمالِ اللُّغويّ عند الجاحظ

أ.د. لطيف حاتم عبد الصاحب الزامليّ م.م. عمار إحسان عبد الله الخزاعي

الملخص:

إن المنهج الاجتماعي الذي اتّبعه الجاحظ القائم على أن استعمال اللغة في طبقات ، كما أن الناس في طبقات ، جعله يعتمد (مبدأ التدرج) ، ومن ثم تصنيف طبقات الاستعمال اللغوي جودةً أو حسناً ، ورداءةً ، ولا بدّ لهذا التصنيف من أساس يقوم عليه ؛ حتى يقرّر الجاحظ جودة طبقة اللغة المستعملة وحسنها على الطبقات اللغوية الأخرى ، وفيما نزعُم في هذا المبحث أنّ الأساس الذي اعتمده في تصنيف الطبقات اللغوية قائم على ما يحيط بالطبقة الاجتماعية من مشيرات اجتماعية ترتبط بالبيئة ، والمكان الجغرافي ، والمستوى الأدبي ، والثقافي ، والعلمي ، والديني ، والكلامي ، والسياسي ، والاقتصادي ، والمهني ، وهي مشيرات اجتماعية عند الجاحظ ترفع شأن استعمالٍ لغويٍّ في طبقةٍ اجتماعيةٍ على أخرى ، فنحن أمام نوعٍ من (التحيّز اللغويّ Linguistic Prejudice) عند الجاحظ ، أساسه رقي المشير الاجتماعي وانحطاطه ومدى ارتباطه بالطبقة الاجتماعية الناطقة باللغة ، وهو ما سنحاول في هذا المبحث مقاربته ، وفقاً لرؤية الجاحظ الاجتماعية للّغة المستعمَلة.

الكلمات الافتتاحية :(المشير الاجتماعي – الجاحظ –الطبقة – الاستعمال).

Abstract:

The social approach that Al-Jahiz followed, based on the fact that the use of language is in classes, just as people are in classes, made him adopt (the principle of hierarchy), and then classify the classes of linguistic use as quality or good and bad, and this classification must

have a basis upon which In order for Al-Jahiz to determine the quality of the language class used and its goodness over other linguistic classes, and while we assert in this study that the basis for classifying the linguistic classes is based on the social mores surrounding the social class related to the environment, geographical location, literary, cultural, scientific and religious level, And verbal, political, economic, and professional, which are social counselors for Al-Jahiz that raise the importance of linguistic use in one social class over another. In this topic, we will try to approach it, according to Al-Jahiz's social view of the language used

المقدمة

يقوم الإجراء اللسانيّ في بُعده الاجتماعيّ على رصد الكيفيات التي تتفاعل فيها المشيرات الاجتماعية ، وتنوّعها في الاستعمال . فاللسانيات الاجتماعية تنظر إلى التغيّرات التي تُصيب بنية اللغة المستعملة عند أبناء المجتمع ؛ استجابةً للمشيرات الاجتماعية المتعارَف عليها عندهم[١] ؛ ذلك أن المجتمع ذاته لا يتّسم بالتجانس ، فهو على (طبقات) ، بما يحمله هذا المصطلح الاجتماعي من تدرّج ، تتمايز فيه كلّ طبقة اجتماعية عن الأخرى ، حتى يترتب أبناء المجتمع الواحد في سُلّم طبقي متدرج ، لكل طبقة منها مشيرات اجتماعية خاصة[٢] ، تختلف عن مشيرات الطبقات الأخرى ، وتتصل هذه المشيرات الاجتماعية بالمستوى الثقافي ، والسياسي ، والاقتصادي ، من جهة ، وبالتنوع الديني ، والقوميّ ، والقبلي ، والمهني ، والجنسي ، من جهةٍ ثانية ، وبالأعراف والعادات الاجتماعية ، من جهة ثالثة ، ومن ثمّ تكون لكلّ طبقة اجتماعية social class من طبقات المجتمع طبقة لغويّة لها خصائصها التداولية في الاستعمال ، وفهم معانيها المتوافقة والمشيرات الاجتماعية المحيطة بتلك الطبقة الاجتماعية ، الأمر الذي يجعل لكلّ طبقة اجتماعية طبقة لغوية تقابلها ؛ لترتبط هذه الطبقة اللغوية بالمشيرات الاجتماعية المحيطة بالطبقة الاجتماعية ارتباطاً قيّماً ، هدفُه إيصال غرض المتكلم لمخاطَبه وتحقيق الإفهام والتواصل .

فاللغة من أكثر الظواهر الإنسانية التصاقاً بحياة المجتمع ؛ إذ تتجسّد فيها جميع المشيرات الاجتماعية المتنوعة ، المتصلة بطبقة المتكلمين ، من نحو : جنسهم ،

ودينهم ، ومهنتهم ، ومستواهم الثقافي ، والاقتصادي ، وانتمائهم السياسي ، وتوجههم العلميّ ، وغير ذلك ، فهي خاضعة ومقيّدة بمعايير المجتمع؛ لأجل ذلك يدخل تنوع المشير الاجتماعي في ضمن المؤثرات التي تجعل اللغة في تنوع على مستوى الاستعمال ؛ لأن ذلك التنوع يعكس طبقة مستعمِلي اللغة الاجتماعية ، ففي كلّ لغة تنوعات كلامية –قليلة أو كثيرة– في بنياتها تعادل تنوع الطبقة الاجتماعية في بنية المجتمع ، وبقدر الاختلاف في الطبقة الثانية يكون الاختلاف في الأولى[٣] ؛ لذلك أكدت اللسانيات الوظيفية في بُعدها التداولي على ضرورة الاهتمام بالاستعمال الفعلي للّغة ، مع بيان جهة العلاقة الطبقية بينها –أي اللغة– وبين مستعمِلها ، في إطار مشيرات اجتماعية معينة ، تحيط بطبقة اجتماعية معينة أيضاً[٤] .

ولعلّ هذا الوعي المبكّر عند الجاحظ لوظيفة اللغة الاجتماعية ، وتنوع تلك الوظيفة بتنوع طبقات المجتمع ، ما يؤكد رصدَه لخطاب الناس في الإجراء الفعلي للتداول ، مثلما نلاحظ في قوله : ((كلامُ الناس في طبقاتٍ كما أنّ الناسَ أنفسَهم في طبقات))[٥] . يدلّ هذا النص على أمرين ، الأول : أن اللغة عند الجاحظ واقع اجتماعي ، توجد لأجله ، والثاني : تجسيد الجاحظ للعلاقة التفاعلية بين طبقات اللغة ، وطبقات المجتمع ، فكما أن الناس في طبقات اجتماعية مختلفة ، كذلك اللغة المستعملة في طبقات ، تتوافق عند استعمالها مع المشيرات الاجتماعية المرتبطة بالطبقة الاجتماعية ، بما يُثبت أن اللغة عند الجاحظ رمزٌ للطبقة الاجتماعية .

هذا الوصف الذي قدّمه الجاحظ للعلاقة بين طبقات المجتمع ، وطبقات اللغة ، يطابق تماماً –من حيث المفهوم وآلياته الإجرائية– مصطلح (الجماعة الكلامية Speech Community) ، الذي عرّفه الدكتور هدسن في كتابه (علم اللغة الاجتماعي) ، بأنه : ((مصطلحٌ يستخدم للدلالة على جماعة تعرف على أساس اللغة . ويستخدم مصطلح "الجماعة اللغوية" Linguistic Community بنفس المعنى أيضاً . فلو استطعنا القيام بتحديد "الجماعة الكلامية" لأمكننا القيام بدراستها ومن الممكن أن نجد اختلافاتٍ هامّة بين الجماعات ، وعادةً تتلازم هذه الاختلافات مع الاختلافات اللغوية))[٦] . إن كثرة اختلاط الجاحظ بالطبقات الاجتماعية في عصره ، واطلاعه على الميادين الثقافية ، والاقتصادية ، والدينية ، والكلامية ، والعقدية ،

والسياسية ، والمهنية ، التي ازدهرت في العصر العباسي[٧] ، كونّت لديه نظرة علمية حول تنوّع الطبقات الاجتماعية ، بالقياس إلى طبقات اللغة المستعملة ؛ فللجاحظ كتب تُصوّر المشيرات الاجتماعية التي تُحيط بالطبقات الاجتماعية ، وتؤثر في استعمالهم للّغة ، من نحو : كتاب البخلاء[٨] ، وكتاب البرصان والعرجان والعميان والحولان[٩] ، وكتاب التاج في أخلاق الملوك[١٠] ، ومناقب الترك[١١] ، وفخر السودان على البيضان[١٢] ، وكتاب الفتيا[١٣] ، ورسالة في صناعة القواد[١٤] ، ومفاخر الجواري والغلمان[١٥] ، وكتاب المعلمين[١٦] ، وطبقات المغنيين[١٧] ، وغيرها الكثير ، وهذا دليل واضح على أن الجاحظ قد تنبّه على أثر المشيرات الاجتماعية المرتبطة بطبقات المجتمع على الاستعمال اللغوي من طبقة إلى أخرى ، فكان ينقل كلامهم كما يصدر عنهم دون تعديلٍ أو تحريف ، حتى لو شابه اللّحن ، ومن ثَمّ يمثّل الجاحظ لتنوع الطبقات الاجتماعية ، والتمثيل الذي أقصده ههنا هو الاستشهاد بالمثال الحي على وجود كل طبقة اجتماعية من طبقات المجتمع ؛ لذلك قام الجاحظ بذكر أسمائهم ، ورواية أخبارهم ، وبعدها يستشهد بطريقتهم في استعمال اللغة وفهمها ، من نحو : العباد ، والنسّاك ، والزهّاد ، والخطباء ، والشعراء ، والمتكلمين ، والنوكي ، والحمقى ، والمجانين ، والمعلمين[١٨] ، بما يثبت أن الجاحظ قد رصد تنوع الاستعمال اللغوي ، وفقاً لتنوع المشيرات الاجتماعية التي ينتمي إليها المتكلمون ، وفقاً لطبقتهم الاجتماعية .

إن المنهج الاجتماعي الذي اتّبعه الجاحظ القائم على أن استعمال اللغة في طبقات ، كما أن الناس في طبقات ، جعله يعتمد (مبدأ التدرج) ، ومن ثم تصنيف طبقات الاستعمال اللغوي جودةً أو حسناً ، ورداءةً ، ولا بدّ لهذا التصنيف من أساس يقوم عليه ؛ حتى يقرّر الجاحظ جودة طبقة اللغة المستعملة وحسنها على الطبقات اللغوية الأخرى ، وفيما نزعُم في هذا المبحث أنّ الأساس الذي اعتمده في تصنيف الطبقات اللغوية قائم على ما يحيط بالطبقة الاجتماعية من مشيرات اجتماعية ترتبط بالبيئة ، والمكان الجغرافي ، والمستوى الأدبي ، والثقافي ، والعلمي ، والديني ، والكلامي ، والسياسي ، والاقتصادي ، والمهني ، وهي مشيرات اجتماعية عند الجاحظ ترفع شأن

استعمالٍ لغويٍّ في طبقةٍ اجتماعيةٍ على أخرى ، فنحن أمام نوعٍ من (التحيّز اللغويّ Linguistic Prejudice)[١٩] عند الجاحظ ، أساسه رقي المشير الاجتماعي وانحطاطه ومدى ارتباطه بالطبقة الاجتماعية الناطقة باللغة ، وهو ما سنحاول في هذا المبحث مقاربته ، وفقاً لرؤية الجاحظ الاجتماعية للّغة المستعمَلة .

أوّلاً : لغةُ طبقة الأعراب :

عَدَّ الجاحظ لغة الأعراب من أعلى طبقات اللغة المستعمَلة ، بقوله : ((وأنا أقول : إنه ليس في الأرض كلامٌ هو أمتعُ ولا آنَقُ ، ولا ألَذُّ في الأسماع ، ولا أشدُّ اتّصالاً بالعقول السليمة ، ولا أفْتَقُ للّسان ، ولا أجودُ تقويماً للبيان ، من طولِ استِماعِ حديثِ الأعراب))[٢٠] ، يُفهم من هذا النصّ أنّ الجاحظ يعتبر لغة طبقة الأعراب من أجود الطبقات اللغوية ، وأهلها من أحسن الناس استعمالاً للّغة ، بمختلف مستوياتها : الصوتية ، والنحوية ، والدلالية ، فهي من أحسن طبقات اللغة قدرةً على التعبير عن قصد المتكلم ، وفكره السليم ، ومن أفضل طبقات اللغة قدرةً على إيصال المعنى إلى السامع بوضوح وجلاء ، وإنما صار الجاحظ إلى هذا الحكم على لغة طبقة الأعراب ؛ ((لأنّ تلك اللغة إنما انقادت واستوتْ ، واطّردت وتكاملت ، بالخصال التي اجتمعت لها في تلك الجزيرة))[٢١] .

يتضح من هذا التعليل أن الجاحظ احتكم في تصنيف الاستعمال اللغوي المتداول في طبقة الأعراب إلى مشيرات اجتماعية اتصلت بالبيئة المكانية للمتكلمين الناطقين بهذه اللغة ، وهي مشيرات تتمثل في خصال الأعراب الأخلاقية في شبه الجزيرة العربية ، هذه الخصال التي تدعو إلى التأدّب ، واحترام الآخر ، ولغةُ طبقة الأعراب –بحسب الجاحظ– ولدت في رحِم هذه الخصال الأخلاقية حتى تكاملت واستوت ، بما يثبت أن تصنيف الجاحظ للغة طبقة الأعراب في أعلى مراتب الاستعمال اللغوي لا لأمرٍ متصلٍ باللغة ، وجمالياتها الصوتية ، والنحوية ، والدلالية ، وحدها ، وإنما لمشيرات اجتماعية اتصلت بطبائع الناطقين بهذه اللغة في شبه الجزيرة العربية ، وخصالهم ، ويؤكد هذا الفهمَ الذي ذهبنا إليه قولُ الجاحظ في كتاب (الحيوان) في باب (اختيار الألفاظ وصوغ الكلام): ((وأنا أقولُ في هذا قولاً ، وأرجو أن يكونَ مرضياً . ولم أقل "أرجو" لأني أعلم فيه خللاً ، ولكنّي أخذتُ بآداب وجوه أهلِ دعوتي وملّتي ، ولغتي ،

وجزيرتي ، وجيرتي ؛ وهم العرب . وذلك أنه قيلَ لِصُحارٍ العبديّ : الرجل يقول لصاحبِه ، عند تذكيره أياديَه وإحسانَه : أما نحن فإنّا نرجو أن نكون قد بلغْنا من أداءِ ما يجب علينا مبلغاً مُرضياً . وهو يعلم أنّه قد وفّاهُ حقَّه الواجبَ ، وتفضّل عليه بما لا يجب . قال صُحار : كانوا يستحبُّونَ أن يدَعُوا للقول مُتنفَّساً ، وأن يتركوا فيه فضلاً ، وأن يتجافوا عن حقٍّ إن أرادهُ لم يُمنَعوا منه))[٢٢] .

يدلّ هذا النص بصورة جليّة على غايتنا التي نهدُف إلى إثباتها ، وهي أن الجاحظ صنّف الطبقات اللغوية بناءً على رقي المشيرات الاجتماعية المرتبطة بطبائع مستعمِلي اللغة وعاداتهم الاجتماعية ، وهي مشيرات تنتمي إلى المقام في بعده الاجتماعي ، لا إلى المقال ذاتِه .

فعندما بدأ الجاحظ خطابَه في هذا الباب بأسلوب الرجاء ، بقوله : (أرجو) ، لا لخللٍ في علمه ، وإنما استعمل اللغة وفقاً للمشير الاجتماعي ، المتداول عند الناطقين بلغة الأعراب –المنتسبِ إليهمُ الجاحظ– في شبه الجزيرة العربية ، هذا المشير الاجتماعي القائم على قاعدة التأدّب ، ومبدأ مراعاة اعتبارات التهذّب الأخلاقي عند إقامة فعل التواصل مع المخاطَب ؛ لهذا بدأ الجاحظ كلامه بأسلوب الرجاء في هذا الباب ؛ بوصفه مشيراً اجتماعياً متداولاً في الاستعمال اللغوي عند أبناء طبقة الأعراب ، وبعدها يؤكد الجاحظ ذلك بما نقله عن صُحار العبديّ ، لاستعماله أسلوب الرجاء على الرغم من علمه –بوصفه متكلماً– بفضله على المخاطب بما يجب من فضل ، وبما لا يجب أيضاً ، وبعدها ينقل الجاحظ أسلوباً آخرَ من الأساليب المستعملة في طبقة لغة الأعراب ، التي ترتبط بالمشير الاجتماعي القائم على قاعدة التأدب ، وذلك بأن يعمد المتخاطبون إلى ترك فضل الكلام ، وترك حقّهم فيه إلى الآخَر .

ما نصّ عليه الجاحظ من مراعاةٍ للمشير الاجتماعي المتداول ، القائم على التأدب في تصنيف لغة الأعراب ، يقارب (مبدأ التأدب واعتبار جانب التهذيب) ، وهو المبدأ التداولي الثاني من مبادئ التخاطب اللساني الذي أوردتْه (روبين لاكوف ROBIN LAKOFF) ، التي قدمت له في مقالتها الشهيرة "منطق التأدّب" ، وصيغةُ هذا المبدأ التداوليّ هي : "لِتَكُن مُؤدّباً"[٢٣] ، و((يقتضي هذا المبدأ بأن يلتزم المتكلم والمخاطب ،

في تعاونهما على تحقيق الغاية التي من أجلها دخَلا في الكلام ، من ضوابط التهذيب ما لا يقلّ عمّا يلتزمان به من ضوابط التبليغ))[٢٤] ، وهذا يُفسّر لنا التعليل الذي دفع الجاحظ إلى القول بأنّ طبقة لغة الأعراب في أعلى مراتب الطبقات اللغوية المستعملة .

ممّا تقدّم يتضح أن المشير الاجتماعي المتصل بالبيئة المكانية في خصال شبه الجزيرة العربية ، المقتضي مراعاة التأدب والتهذيب عند مُستعمِلي اللغة في طبقة الأعراب ، كان سبباً مباشراً عند الجاحظ لتصنيفه طبقةَ هذا الاستعمال في أعلى مراتب الطبقات اللغوية المتداوَلة في المجتمع ، أما باقي طبقات اللغة عند الجاحظ فهي دون لغة طبقة الأعراب تصنيفاً ؛ وذلك لاشتمال أهلها على مشيرات اجتماعية رديئة بألفاظٍ مستكرَهة ، وساقطة ، تُقلّل من طبقة اللغة المتداوَلة في المجتمع ، قال الجاحظ : ((ولم أجد في خطب السّلَف الطيّب والأعراب الأقحاح ، ألفاظاً مسخوطة، ولا معانيَ مدخولة ، ولا طبعاً رديئاً ، ولا قولاً مستكرَهاً ، وأكثر ما تجد ذلك في خطب المولَّدين ، وفي خُطب البلَديّين المتكلّمين ، ومن أهل الصنعة المتأدبين ، وسواء كان ذلك منهم على جهة الارتجال والاقتضاب ، أمْ كان من نتاج التحبير والتفكير))[٢٥].

ظهر من هذا النصّ أن المشير الاجتماعيّ المتداوَل في طبائع مُجتمَع المولَّدين[٢٦]، والبلديّين[٢٧] ، وأهل الصنعة المؤدّبين ، يُقلّل من طبقة اللغة المستعمَلة عندهم ؛ وذلك لأنّ هذه اللغة عند الجاحظ تصدُر عن طبائع تواصلية رديئة ، وألفاظٍ مسخوطة ، ومعانٍ دخيلةٍ على العربيّة ، فتكون أقوالاً مستكرهة غيرَ عربيّة ، لا تنتمي لطبقة لغة الأعراب في شبه الجزيرة العربية ، هذه الطبقة التي تصدُر لغتها المستعمَلة عن مشيرات اجتماعية وطبائعَ حسَنة ، قائمة على مراعاة مبدأ التأدّب واعتبار جانب التهذيب ، ومن ثمّ يُنبّه الجاحظ على أنّ مستعملي اللغة في طبقة المولّدين ، والبلديين ، وأهل الصنعة المؤدبين ، مطبوعون على مشيرات اجتماعية رديئة شاخصة في طبائعهم اللسانيّة ، فلا يمكن إضمارها في تواصل لغويّ منطوق ، أو في تواصل لغويّ مكتوب ، رغم الفسحة التواصلية التي يمنحها التواصل اللغويّ المكتوب للمتكلّم ؛ لتدبُّر خطابه والتفكّر فيه .

ثانياً : لغةُ طبقةِ الخاصّة :

ونعني بلغة الطبقة الخاصّة ههنا ، تلك اللغة التي لا تُستعمَل إلا عند طبقات اجتماعية تحيط بهم مشيرات اجتماعية خاصة ، تُميّز استعمالهم للغة عن باقي طبقات المجتمع

اللساني ، ومثالُ ذلك : (المدّعي العامّ) ، أو (القاضي) ، فهذان الموظفان يَستعملان في تسبيب حيثياتهما ، أو تحريرها ، لغةً بعيدةً عن اللغة الجارية في التواصل اليوميّ عند باقي الطبقات الاجتماعية ؛ فهي لغة موجهة عند استعمالها بمشيرات اجتماعية تتصل بطبقة القانونيّين . ولدينا مثالٌ آخرُ عند استعمال اللغة الخاصة في الطقوس الدينية ، فالمؤمن كثيراً ما يستعمِل لغةً خاصّة تحيط بها مشيرات اجتماعية تتصل بالجانب الدينيّ ، فاللغة الخاصة بناءً على ذلك هي : لغة تتميز عن اللغة الجارية في التواصل اليوميّ بمشيرات اجتماعية خاصّة ، ترتبط بالمستوى الثقافي ، والعلمي ، والمهني ، والديني ، والعقدي ، وغيرها من المشيرات الاجتماعية التي تقصر استعمال اللغة الخاصة على طبقة اجتماعيّة دون غيرها[٢٨].

يُثبت الجاحظ لغة الطبقة الخاصة ، وهي عنده طبقة مجزّأة من طبقتين ، الأولى: تختص بطبقة لغة المعتزلة ، والثانية : تشترك فيها طبقة لغة الشعراء ، والكتّاب ، والفقهاء ، والخطباء ، والبلغاء[٢٩] ، وكلا الطبقتين عند الجاحظ يرتبط استعمالهم للّغة بمشيرات اجتماعية خاصة ، لا يتمّ تداولها في باقي طبقات المجتمع ، ومن نحو : المستوى العلمي ، والثقافي ، والديني ، والكلامي ، والعقدي، والأدبي ، وغيرها ، فهذه المشيرات الاجتماعية مشيرات خاصة ، توجه استعمال اللغة عند الجاحظ بطريقة خاصة ، تختلف عن استعمال اللغة الجارية عند باقي طبقات المجتمع اللساني .

فأما لغة طبقة المعتزلة فقد عدّها الجاحظ في أعلى طبقات التصنيف اللغوي ، وأول طبقات اللغة الخاصة ؛ ذلك أنّ المعتزلة عند الجاحظ يمتازون باستعمال لغوي خاص متفرد ، يتصل بأفكار عقدية وكلامية ، هذه الأفكار جعلت استعمالهم اللغوي متميزاً عن غيره من طبقات اللغة الخاصة ، فالاستعمال اللغوي عند المعتزلة –بحسب الجاحظ– مرتبط بمشيرات اجتماعية تختص بهم دون غيرهم ، تتمثل في تداول مصطلحات كلامية ، تمتاز بخروجها عن التداول المألوف للّغة الجارية عند باقي طبقات اللغة ؛ وذلك بنقل اللفظ من معناه الذي وضع له في اللغة الجارية إلى معنىً آخر تختص به طبقة لغة المعتزلة ، بحسب ما اصطلحوا عليه في تداولهم اللغوي الخاص ، قال الجاحظ : إنّ ((كبار المتكلمين ورؤساء النظّارين كانوا فوق أكثر

الخطباء ، وأبلغَ من كثيرٍ من البلغاء . وهم تَخيَّروا تلك الألفاظَ لتلك المعاني ، وهمُ اشتقّوا لها من كلامِ العرب تلك الأسماءَ ، وهم اصطلحوا على تسمية ما لم يكن له في لغة العرب اسمٌ ، فصاروا في ذلك سلفاً لكلّ خلَف ، وقدوةً لكلّ تابع . ولذلك قالوا العرَض والجوهر ، وأيْس ولَيس ، وفرّقوا بين البطلان والتلاشي ، وذكروا الهديَّة والهُوية والماهيّة))[٣٠] ، والمتأمل في هذا النص له أن يفهم الآتي :

١- أنّ الاستعمال اللغوي عند المعتزلة محاطٌ بمشيرات اجتماعية مخصوصة ، لا توجد في باقي طبقات اللغة الخاصة ، تتمثل بمشيرات اجتماعية علمية ، وكلامية، وثقافية ، وفكرية ، اقتضت في لغة المعتزلة التعبير عن معانٍ خاصة ، وضعوا لها ألفاظاً خاصة أيضاً ، اشتقوها من كلام العرب ، كالجوهر والعارض ، والبطلان والتلاشي ، والهديّة والهويّة والماهيّة ، وغيرها ، وهي ألفاظ اصطلاحية اقتصر تداولها على استعمال طبقة لغة المعتزلة دون غيرها .

٢- هناك إشارة واضحة في تحليل الجاحظ للغة طبقة المعتزلة على حركيّة المعنى وتغيّر الدلالة ، فاللغة عند الجاحظ تعكس لحظة استعمال المشيرات الاجتماعية المرتبطة بالطبقة الاجتماعية الناطقة بها ، وهي -بهذا الوصف- متغيّرة الدلالة من طبقة اجتماعية إلى أخرى ، وهذا مقارب لحقيقة تؤمن بها اللسانيات الاجتماعية في بعدها التداولي ، وهي (التطوّر اللغويّ Linguistic change) ، فاللغة بحسب التداول الاجتماعي ليست ساكنة الدلالة بحال من الأحوال ، فدلالة اللفظ معرّضة للتغيّر والتطور ، بما يقتضيه المشير الاجتماعي المرتبط بمستعملي اللغة[٣١] .

٣- لا يضع الجاحظ لغة طبقة المعتزلة في مستوى واحد ، بل يعتبرهم في مستويين ، الأول : لخاصة الخاصة ، والثاني : لخاصة العامة ، وأساس هذا التقسيم عنده قائم على مدى ارتباط أفراد هذه الطبقة بالمشيرات الاجتماعية ، والعلمية ، والأخلاقية ، والأدبية ، والعقدية ، والكلامية ، المتداولة عند أبناء طبقة المعتزلة ، يؤكد هذا الفهم قول الجاحظ في كتاب (الحيوان) ، في باب (حظوة طوائف من الألفاظ لدى طوائف من الناس) : ((وأشكالاً من هذا الكلام . فصار وإن كان غريباً مرفوضاً مهجوراً عند أهل ملّتِنا ودعوتِنا ، وكذلك هو عند عوامّنا وجمهورِنا ، ولا يستعمله إلا الخواصّ وإلا المتكلّمون))[٣٢] ، يُفهم من هذا النص أن لغة طبقة خاصة الخاصة من المعتزلة

تتعلق بصفوة رجال المعتزلة ورؤساء نُظّارها ، وهي لغة تتصل بعمق المشيرات الاجتماعية ، العلمية ، والأدبية ، والأخلاقية ، والكلامية ، والثقافية ؛ الأمر الذي جعل استعمال هذه الطبقة من طبقات المعتزلة للّغة أعلى من سائر طبقات الاستعمال اللغوي . أما لغة خاصة العامة فهي تتصل عنده بعوامّ طبقة المعتزلة ، مثلما يتضح من قوله : ((وأمّا العوامّ من أهل ملّتنا ودعوتنا ، ولغتنا وأدبنا وأخلاقنا ، فالطبقة التي عقولُها وأخلاقها فوق تلك الأمم ولم يبلُغوا منزلة الخاصّة منا . على أن الخاصة تتفاضل في طبقاتٍ أيضاً))[٣٣] . يدلّ هذا النص على أمرين ، الأول : أن لغة طبقة المعتزلة بخواصها وعوامّها أعلى طبقات اللغة الخاصة جميعاً ، والثاني : أن معيار التصنيف قائم عند الجاحظ على أساس المشير الاجتماعي الكلامي ، والعلمي ، والأخلاقي ، والأدبي ، هذا المشير الاجتماعي يُصنف –بحسب قوة الارتباط به– طبقة لغة المعتزلة ذاتها ، مع مراعاة مبدأ التدرج إلى خاصة الخاصة ، باعتبارهم أعلى طبقات لغة المعتزلة الخاصة ، وإلى خاصة العامة بوصف متكلمي هذه الطبقة أعلى من باقي الأمم ، فهذه الطبقة الأخيرة من طبقات لغة المعتزلة خاصة نظراً إلى باقي طبقات الاستعمال اللغوي ، وعامة بالنظر إلى طبقة لغة المعتزلة خاصة الخاصة.

إنّ ما أدلى به الجاحظ من تصنيف للغة المعتزلة ، وحديثه عن قيمة المشيرات الاجتماعية العلمية ، والثقافية ، والكلامية ، والأخلاقية ، الحافّة باستعمالهم للّغة ، يوافق ما توصّل إليه اليوم علم النفس الاجتماعي من ((أن الناس يميلون إلى الاعتقاد بأن الجماعة التي ينتمون إليها أفضل من غيرها من الجماعات))[٣٤] ، وبعبارة أخرى فإن المشير النفسي عند الجاحظ جعل نظرته إلى ذاته مشتقّة من نظرته إلى الطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها ؛ الأمر الذي جعل احترام الجاحظ لذاته يعتمد أساساً على احترامه لطبقة المعتزلة ولغتها المستعملة في جميع مستويات هذه الطبقة بدءاً بخاصة الخاصة وتفاضلهم ، وانتهاءً بخاصة العامة التي هي فوق الأمم بحسب الجاحظ ، ومقتضى ذلك أن نظرة الجاحظ للاستعمال اللغوي في طبقة لغة المعتزلة وتصنيفهم في أعلى الطبقات اللغوية في المجتمع اللساني بصورة عامة لم تكن

تصدر عن مشيرات اجتماعية وحسب ، بل صدرت أيضاً عن مشيرات نفسية تتصل بذات الجاحظ وانتمائها الاعتزاليّ .

أما الطبقة الثانية من طبقات اللغة الخاصة عند الجاحظ فهي الطبقة التي يشترك فيها الشعراء ، والكتّاب ، والفقهاء ، والخطباء ، ومنِ استنّ بسننِهم ، فهؤلاءِ عنده يمتازون باستعمال لغويّ متفرّد ؛ ذلك أنهم يتداولون ألفاظاً خاصة ترتبط بمشيرات اجتماعية تشي بانتمائها إلى المستوى الثقافي ، والديني ، والعقدي ، والأدبي ، قال الجاحظ : ((ولكلّ قومٍ ألفاظٌ حظِيت عندهم . وكذلك كلّ بليغٍ في الأرض وصاحب كلامٍ منثور ، وكلّ شاعرٍ في الأرض وصاحب كلام موزون ؛ فلا بدّ أن يكون قد لهجَ وألّفَ ألفاظاً بأعينها ، ليديرَها في كلامه وإن كان واسعَ العلم غزيرَ المعاني))[٣٥] .

يتضح في هذا النص معالجة الجاحظ للّغة وفقاً للآليات الإجرائية التي اعتمدها الاتجاه التداولي ، القائمة على علاقة اللغة بمُستعمِلها[٣٦] ، فقد نظر الجاحظ إلى الطبقة الثانية من طبقات اللغة الخاصة في ضوء الاستعمال والتداول ، وما يعكسه هذان المفهومان من مشيرات اجتماعية تتصل بمستعمِل اللغة ذاته ، فاللغة بهذا الوصف الذي قدّمه الجاحظ مصدر رئيس يُحَدّد من خلاله موقع مستعمل اللغة في طبقات المجتمع ؛ ليؤسس الجاحظ في ضوء هذا الفهم قاعدة لسانية تُقارِب ما قال به التداوليون ، تنصّ على أن مستعملي اللغة الواحدة لا يتّسمون بالتجانس اللغوي ، فلكل طبقة اجتماعية ألفاظ وأساليب متداولة ، يستعملونها في لحظة التعبير عن مقاصدهم ، وهي تعكس –أي اللغة المستعملة– مجموعة المشيرات الاجتماعية المحدّدة للمستوى الثقافي ، والديني ، والأدبي ، وغيرها ، لكل طبقة من طبقات المجتمع[٣٧] ، ومن ثمّ يسحب الجاحظ هذا الفهم ؛ ليُتابع الاستعمال اللغوي في الطبقة الثانية من طبقات الخاصة عند الشعراء ، والكتّاب ، والفقهاء ، والخطباء ، والبلغاء ؛ ليثبت أثر المشير الاجتماعي المحيط بهم في تداول الألفاظ واستعمال اللغة .

ثالثاً : لُغةُ طبقةِ العامَّة :

يُثبِت الجاحظ لغة طبقة العامّة ، لكنه لا يعدّها جديرةً بالذكر ؛ لأنه لا يضع اعتباراً إلا لأربعة أنواع من عوامّ الأمم ، التي تستحقّ لغتها الذكر والعناية ، هم : العرب ، والفرس ، والهند ، والروم ، بقوله : ((إذا سمِعتُموني أذكُرُ العوامَّ فإنّي لستُ أعني

الفلّاحينَ والحُشْوَةَ والصُّنّاعَ والباعَة ، ولستُ أعني أيضاً الأكرادَ في الجبال ، وسُكّان الجزائر في البحار ، ولستُ أعني من الأمم مثل الببر والطّيلسان، ومثل موقان وجيلان ومثل الزِّنج وأشباه الزّنج . وإنما الأمم المذكورة من جميع الناس أربع : العرب ، وفارس ، والهند ، والروم . والباقون همجٌ وأشباهُ الهمَج))[٣٨] .

إنّ تأمّلاً في هذا النص يؤكّد زعمَنا الذي هدفْنا إلى إثباته في هذا المبحث ، وهو أنّ الأساس الذي اعتمدَه الجاحظ في تصنيف اللغات قائمٌ على رقي المشير الاجتماعي المحيط بالطبقة المستعمِلة للّغة ، بما هو مشير ينتمي للمقام الاجتماعي لا للمقال ذاتِه .

فلو أنعمنا النظر في نصّ الجاحظ لوجدنا أن المشير الاجتماعي المرتبط بتمدّن الطبقة الاجتماعية ، بما يحمله مصطلح (التمدّن Civilization) من دخول الطبقة الاجتماعية في مرحلة الرقي ، والحضارة ، والعمران ، وانعكاس ذلك على السلوك الاجتماعي ، والحياتي ، وعلى مجموعة الظواهر العلمية ، والثقافية ، والكلامية ، والدينية ، والأدبية ، هو الأساس الذي اعتمده الجاحظ في اعترافه بطبقة اللغة المستعملة ، ومن ثم إدراجها ضمن تصنيفه لطبقات اللغة ، فالمشير الاجتماعي المرتبط بتمدن الطبقة المستعملة للّغة هو الأساس الذي ميّز به الجاحظ بين طبقة اللغة العربية العامة ، وطبقة لغة العرب الهمج وأشباه الهمج ، من الفلاحين ، والصنّاع ، والباعة ، والطغام ، والحُشوة ، بوصفهم أراذل القوم ، وهم أدنى طبقات المجتمع في نظره ، كما فرّق بالأساس نفسه بين لغة العرب ، والفرس ، والهند ، والروم ، وباقي اللغات الأممية الأخرى ، كلغة الأكراد ، ولغة سكّان الجزائر ، والببر ، والطيلسان ، وموقان ، وجيلان ، والزنج وأشباه الزنج ، فهؤلاء أراذل الأمم عند الجاحظ ؛ وهم لذلك محاطون بمشيرات اجتماعية تدلّ على أنهم همجٌ وأشباه همج عند الجاحظ .

رابعاً : لغةُ طبقةِ الهمَج وأشباهِ الهمَج :

أشرنا في المحور السابق إلى اعتبار الجاحظ لطبقة الفلاحين ، والصنّاع ، والباعة ، والطغَّام ، والحُشوة ، ومن شابههم ، على أنهم همج وأشباه همج ؛ وذلك لارتباط

الأفراد المنتمين لهذه الطبقة بمشيرات اجتماعية رذيلة تقلل من طبقتهم الاجتماعية ، وتُبعدهم عن التمدّن الذي عدّه الجاحظ مشيراً اجتماعياً على أقلّ طبقات اللغة المستعملة في تصنيفه للّغات ، وهي طبقة لغة العامة ، إلا أن عدّ الجاحظ لأفراد هذه الطبقة بأنهم همج وأشباه همج لا يمنع من دراسة لغتهم ، ومن ثَمّ رصد المشيرات الاجتماعية الحافة بهم ؛ ولعلّ السبب في ذلك أن الجاحظ ينظر إلى اللغة في الاستعمال والتداول الاجتماعي ، بالنظر إلى مقولة البيان ، ووظيفة الفهم والإفهام ؛ لذلك أولى الجاحظ اهتماماً بدراسة اللغة السائدة في جميع طبقات المجتمع العباسي ، ومنها طبقة الهمج وأشباه الهمج .

فقد ذكر الجاحظ لغة طبقة الزنادقة ، في باب (حُظوة طوائف من الألفاظ لدى طوائف من الناس) ، بقولهِ : ((فصار حظُّ الزّنادِقَةِ من الألفاظ التي سبَقت إلى قلوبهم ، واتّصلت بطبائعهم ، وجرتْ على ألسنتهم ، التناكح ، والنتائج ، والمزاج ، والنّور والظلمة ، والدفّاع والمنّاع ، والساتر والغامر ، والمنحلّ ، والبُطلان ، والوِجدان ، والأثير والصِّدِّيق))[٣٩] ، يظهر من هذا النص رصد الجاحظ للألفاظ المتداولة في الاستعمال اللغوي لطبقة الزنادقة ، وفق المشير الاجتماعي المتصل بطبائعهم ، وعاداتهم ، وما تميل إليه نفوسهم .

وقد تنبَّه الجاحظ على لغة القرويّين ، وما يعتريها من اللحن ، بقوله : ((وزعم أصحابنا البصريّون عن أبي عمْرو بن العلاء أنه قال : لمْ أرَ قرويِّينَ أفصحَ من الحسن والحجّاج ، وكان –زعموا– لا يبرِّئهما اللّحن . وزعم أبو العاص أنه لم يرَ قرويّاً قطّ لا يلحن في حديثه ، وفيما يجري بينه وبين الناس))[٤٠] ، وقد أشار الجاحظ إلى الاستعمال اللغوي عند الحُشوة والطغَّام ، بوصفهم أراذل القوم ، بقوله: ((إذا سمعتَ بنادرةٍ ... وملحةٍ من مُلَح الحُشوة والطغَّام ، فإياك وأن تستعمل فيها الإعراب ، أو تتخيّر لها لفظاً حسَناً ، أو تجعل لها من فِيكَ مخرجاً سَرِيّاً ، فإن ذلك يُفسد الإمتاع بها ، ويُخرجها من صورتها ، ومن الذي أُريدَت له، ويُذهب استطابتَهم إليها ، واستملاحَهم لها))[٤١] .

ومن أمثلة الاستملاح اللغوي التي ذكرها الجاحظ للغة هذه الطبقة ، وفقاً للمشيرات الاجتماعية المحيطة بهم ، أن الجاحظ سأل بائع الخمر والشراب عن وصف معركة

، فأخبره بائع الشراب مستعملاً ألفاظاً تتوافق والمشير الاجتماعي المتداول عند صُنّاع الخمر وبائعيه ، بقوله ((لقِيناهُم في مقدار صحن بيت الشراب ، فما كان بقدر ما يصفِّي الرجل دنَّاً حتى تركناهم في أضيقَ من رطليّة فقتلناهم ، فلو رميت تفّاحةً ما وقعت إلا على أنف سكران))[٤٢] ، فصانع الخمر وبائعه إنما صاغ خطابه للجاحظ بناءً على مجموعة الألفاظ المتداوَلة عند استعماله للّغة في طبقته الاجتماعية ، وفقاً للمشيرات الاجتماعية المحيطة به وبطبقته الاجتماعية .

الخاتمة

هكذا يتضح لنا –بالنظر إلى المحاور السابقة في هذا المبحث– تدرّج الطبقات اللغوية المستعملة في المجتمع اللساني عند الجاحظ ، وفقاً لتنوع المشير الاجتماعي المحيط بكل طبقة من طبقات المجتمع ، وفقاً للجدول الآتي :

طبقات اللغة	تنوع المشير الاجتماعي
طبقة لغة الأعراب	مشيرات اجتماعية تدعو لمراعاة مبدأ التأدب ، ترتبط بخصال البيئة المكانية في شبه الجزيرة العربية .
طبقة لغة المعتزلة ↓ خاصة الخاصة ↓ خاصة العامة	مشيرات اجتماعية خاصة ، ترتبط بأفكار: علمية ، وكلامية ، وعقدية ، ودينية ، وبالمستوى: الثقافي ، والأدبي، والأخلاقي
طبقة لغة: الشعراء ، والكتّاب ، والفقهاء، والخطباء ، والبلغاء ، ومن استنّ بسننهم.	مشيرات اجتماعية خاصة ، ترتبط بالمستوى: العلمي ، والثقافي ، والفكري، والأدبي ، والديني .
طبقة لغة العامة	مشيرات اجتماعية عامة ، تُظهِر تمدّن الطبقة الاجتماعية .
طبقة لغة الهمج وأشباه الهمج: الفلاحون، والباعة ، والصنّاع ، والحُشوة ، والطغّام ، وغيرهم .	مُشيرات اجتماعية رذيلة ، تدل على أنهم أقل طبقات المجتمع ، فهم همج وأشباه همج .

وهكذا نرى طريقة الجاحظ في تصنيف الطبقات الاجتماعية بحسب لغتهم ، فلكلّ طبقة لغة وألفاظ وأساليب خاصة بها تظهر في المواقف المعيّنة ، أو تتجلّى في المقام ، وبهذه اللغة المتداولة يمكن تصنيف طبقات المجتمع ، أي إن تلك اللغة الخاصة يمكن أن يُستدلّ بها على كلّ طبقة ؛ لما تحمله كلّ لغة من خصائص تلك الطبقة ، فعُدّتْ مشيرات اجتماعية للدلالة على طبقات اجتماعية معروفة في المجتمع(٤٣) .

الهوامش:

(١) ينظر: التفسير اللغوي الاجتماعي للقراءات القرآنية ، د.هادي نهر : ١٧ ، وينظر : علم اللغة ، د.علي عبد الواحد وافي : ١٨٨ .

(٢) ينظر: علم اللغة الاجتماعي ، د.محمد حسن عبد العزيز : ٢٥٨ .

(٣) ينظر: علم اللغة الاجتماعي (مدخل) ، د.كمال بشر : ٢١٦-٢١٧ .

(٤) ينظر التفسير اللغوي الاجتماعي للقراءات القرآنية : ٢٠ .

(٥) البيان والتبيين ١٤٤/١ .

(٦) علم اللغة الاجتماعي ، د.هدسن : ٥٢ .

(٧) ينظر : الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء ، د.رشارل بلّات ، ترجمة : د.إبراهيم الكيلاني : ٣١٥ وما بعدها .

(٨) ينظر : البخلاء ، للجاحظ ، تحقيق : طه الحاجري

(٩) ينظر : البرصان والعرجان والعميان والحولان ، لأبي عثمان الجاحظ ، تحقيق عبد السلام محمد هارون

(١٠) ينظر : التاج في أخلاق الملوك ، للجاحظ ، تحقيق : أحمد زكي باشا

(١١) ينظر : رسائل الجاحظ ١/١ .

(١٢) ينظر : المصدر نفسه ١٧٣/١ .

(١٣) ينظر : المصدر نفسه ٣٠٩/١ .

(١٤) ينظر : المصدر نفسه ٣٧٥/١ .

(١٥) ينظر : رسائل الجاحظ ٨٨/٢ .

(١٦) ينظر : المصدر نفسه ٢٥/٣ .

(١٧) ينظر : المصدر نفسه ١٢٩/٣ .

(١٨) ينظر : البيان والتبيين ٩٨/١ ، ٢٤٤ ، ٢٤٨ ، ٣٠٦ ، ٣٦٣ ، ٣٦٦ ، ٢٢٥/٢ ، ٢٣٥ ، ٢٤٤ ، ٣٤٩ ، ١٢٥/٣ ، ١٩٣ ، ١٦،٥/٤ .

(١٩) التحيّز اللغوي : من مصطلحات اللسانيات الاجتماعية ، يدل على اتخاذ فرد أو جماعة موقفاً سلبياً ، أو إيجابياً ، من استعمال اللغة عند فرد أو جماعة (طبقة) أخرى ، قياساً بالمشيرات الاجتماعية المرتبطة بهم . (ينظر: علم اللغة الاجتماعي ، د.محمد حسن عبد العزيز : ١٣٠) .

(٢٠) البيان والتبيين ١٤٥/١ .

(٢١) المصدر نفسه ١٦٣/١ .

(٢٢) الحيوان ٣٦٧/٣ .

(٢٣) ينظر : اللسان والميزان : ٢٤٠ .

(٢٤) المصدر نفسه : الصفحة نفسها .

(٢٥) البيان والتبيين ٨/١-٩ .

(٢٦) جاء في لسان العرب : ((جاريةٌ مولَّدةٌ : تولَدُ بين العرَبِ وتَنشأُ مع أولادِهِم ويُغَذّونَها غِذاءَ الوَلَد ويُعلّمونَها من الأدب مثلَ ما يُعلّمونَ أولادَهُم ... وإنْ سُمّيَ المولَّدُ من الكلامِ مولَّداً إذا استحدثوه ولم يكُن من كلامهم فيما مضى)) (لسان العرب ٤٩١٥/٦ ، مادة "ولد").

(٢٧) البلديون هم عرب شاركوا في فتح الأندلس ، وكانوا يتألفون من العشائر العربية الدمشقية ، والبربرية ، التي رافقت طارق بن زياد ، وموسى بن نصير ، وقد أطلقوا على أنفسهم اسم البلديين ؛ لأنهم عدُّوا أنفسهم المُلّاك الحقيقيين للبلاد ، فهم أهل البلاد وفاتحوها . (ينظر: تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس ، د.خليل إبراهيم السامرائي ، د.عبد الواحد ذنون طه ، د.ناطق صالح مطلوب : ٦٤-٦٥) .

(٢٨) ينظر : اللغة ، ج.فندريس ، ترجمة عبد الحميد الدواخلي ، ومحمد القصاص : ٣١٤.

(٢٩) ينظر : البيان والتبيين ١٣٧/١ ، ١٣٩ ، و الحيوان ٣٦٦/٣-٣٦٧ .

(٣٠) البيان والتبيين ١٣٩/١ .

(٣١) ينظر : فصول في علم اللغة العام ، محمد عبد الكريم الرويني : ٢٢٢ .

(٣٢) الحيوان ٣٦٦/٣-٣٦٧ .

(٣٣) البيان والتبيين ١٣٧/١ .

(٣٤) علم اللغة الاجتماعي ، د.محمد حسن عبد العزيز : ١٣٠ .

(٣٥) الحيوان ٣٦٦/٣ .

(٣٦) ينظر : الأسس الإبستمولوجية والتداولية : ٢٦٢ ، و التداولية اليوم : ٢٩ ، و آفاق جديدة: ٩ ، وينظر: مغامرة النحو من المعنى إلى التداولية : ٣٢ .

(٣٧) ينظر : اللغة والمجتمع ، د.علي عبد الواحد وافي : ٦ ، و اللغة والمجتمع رأيٌ آخر ، د.محمود السعران : ١٧ .

(٣٨) البيان والتبيين ١٣٧/١ .

(٣٩) الحيوان ٣٦٦/٣ .

(٤٠) البيان والتبيين ١٦٣/١ .

(٤١) المصدر نفسه ١٤٦/١ .

(٤٢) رسائل الجاحظ ٣٩٠/١ .

(٤٣) ينظر : نظام الارتباط والربط في تركيب الجملة العربية ، د.مصطفى حميد : ٦٩ ، والتراكيب النحوية من الوجهة التداولية ، عبد الحميد السيد ، مؤته ، مج٢٦ ، ع٢٤ ، ٢٠٠١م : ٥٨ .